واشنطن تفجر حرب ولاية الفقيه والمرجعية بين خامنئي والسيستاني

نيقوسيا – رياض علم الدين

الوطن العربي – العدد 1424 – 18/6/2004

بعد يوم واحد من الهجوم الذي شنه مرشد الثورة الإيرانية علي خامنئي على السلطة العراقية واصفاً أعضاءها بأنهم دمى في أيدي الأميركيين, سربت جهات مرتبطة بالتيار المتشدد في طهران معلومات خطيرة جداً تؤكد على إقامة مراكز تجنيد لكتائب انتحارية من الشباب الإيراني تستعد للانتقال إلى العراق لمحاربة قوات الاحتلال باسم الدفاع عن العتبات الشيعية المقدسة.

وفيما كانت الجهات الدبلوماسية والاستخبارية تسعى جاهدة للتأكد من مصداقية هذا التهديد الإيراني أطلق ملالي طهران مؤشراً أوضح عندما قامت قيادة الحرس الثوري بإرسال أربعين متطوعاً انتحارياً مسلحين بالرشاشات والقنابل عبر نقطة حدود مكشوفة, بحيث لم تجد القوة الأوكرانية أية صعوبة في اعتقالهم.. ونشر الخبر الذي يؤكد التهديد الإيراني.

في هذا الوقت كانت عدة أجهزة استخبارية غربية تتداول أحدث تقرير عن الحملة الإيرانية لتجنيد الانتحاريين. وكشف هذا التقرير أن إحدى ضواحي العاصمة "طهران" شهدت لمناسبة الاحتفالات بذكرى وفاة الإمام الخميني ما اعتبر أكبر تجمع من نوعه منذ سنوات لجماعات إسلامية متشددة جاءت من عدة دول عربية وإسلامية بدعوة من مكتب المرشد وتحديداً من "مركز أركان شهداء النهضة الإسلامية العالمية" وهو التسمية الجديدة للمكتب الذي كان يعرف أيام "تصدير الثورة" في الثمانينات وأوائل التسعينيات بـ "دائرة الحركات التحررية والثورية" وتؤكد المعلومات أن هذا المؤتمر استمر ثلاثة أيام "من 2 إلى 5 يونيو (حزيران)", وشهد على هامشه عمليات التجنيد وتسجيل أسماء الانتحاريين التي بلغت حسب آخر الأرقام أكثر من عشرة آلاف في إيران وحدها. ولاحظ المراقبون أن السلطات الإيرانية حرصت هذه المرة على تسريب أخبار الكتائب الانتحارية ومشاركة تنظيمات إسلامية وعربية طلب منها فتح مكاتب تطوع سرية.. بينما كانت في السابق تعقد هذا التجمع في سرية تامة.

ولهذا كانت التهديدات الإيرانية العلنية والمباشرة لشن حرب انتحارية دفاعاً عن العتبات المقدسة في النجف وكربلاء محور رصد معمق من الخبراء الذين وجدوا فيها تعبيراً عن أزمة عميقة تعيشها طهران وخصوصاً المرشد الولي الفقيه على خلفية المفاجآت التي حصلت في عملية نقل السلطة والسيادة إلى العراقيين. وفي رأي هؤلاء الخبراء أن المفاجأة التي حملتها تركيبة السلطة الجديدة المؤقتة في العراق بشخصي الرئيس السني غازي الياور ورئيس الحكومة الشيعي إياد علاوي وبصيغة الحكومة التي استبعدت رجال الدين لم تكن كما ظهرت أولاً ضربة لمرجعية السيستاني ومفهوم نقل السلطة للشيعة, بل حملت في أبعادها هزيمة للمشروع

الإيراني في العراق ونكسة لمخططات المرشد وتياره الراديكالي الذي كان يعد لاستغلال الورقة الشيعية لتكريس النفوذ الإيراني في العراق والمنطقة.

وتؤكد مصادر أميركية لـ "الوطن العربي" أن تركيبة السلطة الجديدة في العراق جاءت تعكس استراتيجية أميركية أساسها إسقاط الرهان السابق والمسبق على علاقة متميزة مع الشيعة والعودة إلى توازنات الساحة العراقية وخصوصاً التراجع عن اجتثاث البعث وعزل السنة, وعلى ضوء ذلك ولدت معادلة سياسية شيعية جديدة شكلت في البداية تحدياً لمرجعية السيستاني عبر تجاهل بعض مطالبه.

حرب كردية – شيعية

لكن المصادر نفسها تضيف أن السيستاني المعروف باعتداله وصبره وصمته أجاد التعامل مع الواقع الجديد بحيث اتخذ قرار مباركة الحكم العراقي الجديد قبل تكرار بعض الشروط والتحفظات عليه. وبذلك تحول السيستاني من الخاسر الأكبر إلى الرابح الأكبر على الساحة الشيعية, وخصوصاً بعد قرار مجلس الأمن الدولي الإجماعي لمرحلة ما بعد يوليو "تموز" وقبول الأميركيين بتعديل القرار لمنح أكبر قدر من السيادة للحكم العراقي الجديد. لكن فوز السيستاني كان هذه المرة على الأكراد, حيث كانت رسالته للأمين العام للأمم المتحدة معدة لمواجهة رسالة البارزاني والطالباني لبوش مطالبين بتكريس الحكم الذاتي الكردي في القرار الدولي.

وقبل أن يتحول الخلاف بين السيستاني المطالب بحكومة مركزية قوية والأكراد المطالبين بحكم ذاتي موسع, إلى مشروع حرب كردية – شيعية كما يتخوف المراقبون, كانت الساحة الشيعية في العراق وإيران محور قلق بالغ من المتابعين لمخططات خامنئي.

والواقع أن المعادلة العراقية الجديدة لم تفجر صراعاً سنياً – شيعياً كما تخوف البعض, بل أسهمت أولاً في تفجير صراع شيعي – شيعي أو بالأحرى شيعي عراقي وشيعي إيراني. وفي معلومات "الوطن العربي" من مصادر شيعية عراقية وثيقة الاطلاع أن الساحة الشيعية كانت تغلي بهواجس حرب داخلية منذ إبريل "نيسان" الماضي على ضوء حرب المقاومة التي أعلنها مقتدى الصدر وجيش المهدي بدون العودة إلى مرجعية السيستاني وبدون تأييد المراجع الشيعية العراقية التي كانت تعرف حجم اختراق إيران وجماعة خامنئي لتيار الصدر ولقواته. وتضيف هذه المصادر أن أول رد فعل للمراجع الشيعية بعد مفاجأة إعلان الحكم الجديد كان في تحمل مقتدى الصدر وإيران مسؤولية ما اعتبرته "غبناً وتراجعاً عن وعود أميركية بنقل سريع للسلطة إلى الشيعة".

وبالفعل شهدت الساحة الشيعية بداية تصفية حسابات حال الإعلان عن تشكيلة الحكم الجديد. وبسرعة انتقل الصراع إلى مشروع حسم بين مرجعيتي قم والنجف وبين مرجعية خامنئي والسيستاني طرح خلاله مجدداً مصير نظرية ولاية الفقيه التي يصر عليها خامنئي ويرفضها السيستاني نموذجاً في العراق.

وما حصل في مسجد النجف يوم الجمعة الفائت كان أبرز تعبير عن إفراز المعادلة السياسية والدينية الجديدة على الساحة الشيعية وعن تدهور غير مسبوق في العلاقات بين الزعامات الشيعية في العراق وإيران.

وكانت المفاجأة على لسان حجة الإسلام صدر الدين قبانجي أحد مساعدي عبد العزيز الحكيم رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق والذي كان معروفاً بأنه أكثر التنظيمات ارتباطاً بإيران وعلاقات مع خامنئي وتياره. فقد اختار الشيخ القبانجي خطبة الجمعة ليوجه انتقادات لاذعة بل اتهامات لتلفزيون "العالم" الإيراني الذي يبث بالعربية ويعتبر ناطقاً باسم المرشد, وأخذ القبانجي على تلفزيون "العالم" وصفه مقاتلي الصدر بالمقاومة قبل أن ينتقل إلى اتهامه لام ملالي طهران بالصمت على أحداث العراق وعلى ما يفعله الصدر وذلك في أعنف هجوم يشنه رجل دين شيعي ضد سياسة الجمهورية الإسلامية في العراق.

...وحرب مرجعيات

وكان واضحاً أن الشيخ القبانجي كان يعبر عن شعور عام بات سائداً لدى السلطات الشيعية العراقية تجاه سياسة ملالي طهران في العراق ودعمهم الذي لم يتوقف لجيش المهدي بالسلاح والمال والرجال وتحميل هؤلاء الملالي مسؤولية المعادلة الجديدة التي نجحت واشنطن في فرضها في العراق بمباركة دولية. ولعل أهمية خطبة القبانجي في أنها تأتي من مسؤول ديني في تنظيم تأسس في إيران وحصل على مساعداتها المالية واللوجستية والعسكرية "فيلق بدر" لعشرات السنين مما يوحي بأن المجلس الأعلى بات في صدد قطع العلاقات مع طهران. وفي معلومات "الوطن العربي" أن هذه العلاقات بدأت تتدهور منذ أغسطس "آب" الماضي على خلفية لغز اغتيال زعيم "المجلس الأعلى" آية الله محمد باقر الحكيم لدى خروجه من صلاة الجمعة في النجف بسيارة مفخخة تراوحت الاتهامات فيها بين المخابرات الإيرانية وجماعة مقتدى الصدر. وفي قناعة بعض الخبراء أنه قد لا يكون من قبيل الصدفة أن تشهد بغداد, بعد يومين من إعلان التوتر بين المجلس الأعلى وإيران, جريمة اغتيال أحد كبار ضباط "فيلق بدر" اللواء الركن شاهر فيصل شاهر ضمن ما ظهر كبداية مسلسل اغتيالات وأعمال تفجير شملت في يوم واحد مخزن أسلحة في مسجد الكوفة واغتيال الشيخ خليل المشهداني عضو هيئة علماء المسلمين وانعكست بداية سقوط للهدنة مع جماعة الصدر في النجف.

وفي معلومات المصادر أن التدهور المفاجئ على الساحة الشيعية – الشيعية على خط العلاقة بين شيعة إيران وشيعة العراق ينذر بتطورات خطيرة لكونه يأتي على ضوء مرحلة جديدة تتميز بكونها مرحلة إعادة حسابات من جانب كل من السيستاني وخامنئي. وتؤكد المعلومات أن هذه المرحلة تفرض ظهور تحالفات شيعية جديدة تؤسس للمرحلة المقبلة وتأخذ في الاعتبار القوى السياسية الشيعية الجديدة التي ظهرت وتلك التي خرجت من المعادلة. وبعد خروج أحمد الجلبي وظهور تقارير عن استعداد زعيم حزب المؤتمر لسلوك الخط التصعيدي على أمل وراثة جماعة مقتدى الصدر أو التحالف معه, أطلق الحاكم الأميركي في العراق إحدى آخر مفاجآته عندما أعلن تحريم إدخال مقتدى الصدر في اللعبة السياسية ومنع

السماح له بخوض الانتخابات المقبلة والمشاركة في المؤتمر الوطني الموعود. وفي رأي هؤلاء أن الاستراتيجية الأميركية مازالت تلحظ حسم مسألة الصدر رغم مساعي السيستاني لإعادة الاعتبار له وأنها تعكس وجود مخطط لمواجهة مخطط خامنئي في العراق ودفع شيعة العراق نحو الانخراط في مشروع وطني مستقل عن إيران وحسم الخيار لصالح مرجعية السيستاني المتأقلمة مع المعادلة السياسية الشيعية الجديدة في العراق والمراهنة على انتخابات أوائل العام المقبل.

لكن ما يثير تساؤلات المراقبين أكثر في المرحلة الحالية وعلى المدى القصير ليس موقف السيستاني, بل موقف خامنئي. وفي رأي هؤلاء أن الاستراتيجية كسب وقت واقتطاع هدنة انتخابية تمتد حتى نوفمبر "تشرين الثاني" المقبل وتسمح للرئيس باستخدامها للفوز بولاية ثانية. وعلى ضوء ما حصل في الأسبوعين الماضيين في العراق وفي مجلس الأمن عاد مستشارو بوش إلى التفاؤل لكن السؤال الأبرز يبقى في رصد الموقف الإيراني والموقف من إيران وكيفية تعامل طهران مع عملية إبعادها عن الساحة العراقية ومواجهتها بمعادلة شيعية عراقية جديدة تحمل في طياتها تهديداً لمرجعية خامنئي وسلطة ولاية الفقيه. ويبدو واضحاً للمراقبين أن طهران خسرت الرهان على مجيء حكم عراقي مؤيد لها وذي هيمنة شيعية واضحة تفتح أمامها طريق فرض نفوذها على المنطقة بمعادلة استراتيجية جديدة لصالحها برضى الأميركيين. وفي تحليل هؤلاء أن هذه المعادلة الجديدة ستفرض معادلة جديدة بين شيعة العراق وإيران وتدفع إلى الفرز بينهما من جهة وحسم مسألة قدرة ملالي طهران على السيطرة على الزعامة الشيعية العراقية وتحديداً المرجعية ومن جهة أخرى دفع مرجعية السيستاني إلى الكشف عن خياراتها وخلافاتها ليست فقط على واشنطن بل معه طهران أيضاً. ويرى هؤلاء المراقبون أن السيستاني بدعمه حكومة علاوي وبالتجاوب الدولي مع رسالته إلى الأمم المتحدة اقترب أكثر من موعد كشف خياره العراقي في شقه المستقل عن إيران دينياً وسياسياً. وهو موقف يتوقع أن ينسحب على عشائر الزعامات الشيعية في العراق من حزب الدعوة إلى المجلس الإسلامي الشيعي وغيرهما كما يتوقع أن يتطور حتماً إلى إعادة الصراع على المرجعية بين النجف وقم إلى العلن.

وعلى ضوء هذه المعادلة يؤكد الخبراء أن خامنئي يجد نفسه أكثر إحراجاً من السيستاني, بل ثمة من يرى أن ملالي طهران مهددين بعقوبات دولية بسبب البرنامج النووي, يجدون أنفسهم أمام مأزق لا سابق له إلى حد يدفعهم إلى التهديد باستخدام كل أوراقهم دفعة واحدة وبعدما خسروا – حسبما كان ظاهراً في الأيام الأخيرة- ورقة التلاعب بالتنظيمات والزعامات الشيعية العراقية المعروفة والنافذة, فإنهم سارعوا إلى إخراج أوراق أخرى أبرزها: ورقة محاولة استخدام الطالباني حليفهم التقليدي بتأليب الأكراد ولو ضد الشيعة وهي ورقة تذكر بدعم طهران لأرمينيا ضد أذربيجان. وورقة إعادة تحريك جيش المهدي لنقل التفجير إلى قلب بغداد ومدينة الصدر. وورقة "القاعدة" التي مازالت تؤويها بعض أجنحة الحرس الثوري في إيران وتؤكد تقارير استخبارية أن طهران قادرة على تحويلها إلى محور مقتدى الصدر – الزرقاوي... وفي النهاية ورقة آلاف الانتحاريين الذين أضحوا جاهزين لتشكيل "جيش شهداء الحركة الإسلامية العالمية". والذي تقول

آخر المعلومات الإيرانية إن مهمتهم لن تقتصر على النجف وكربلاء ولا حـتى العراق فقط.

الراصد